اللهجة العامية في أعمال عبد الملك مرتاض الروائية
–مقاربة سيميائية–

أ. سي أحمد محمود
جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف

مقدمة

أثارت هذه الظاهرة في الرواية جدلاً بين الدارسين والباحثين، وتباينا في وجهات النظر، ومازالت محل نقاش، يشغل كبار النقاد وأهل الأدب، مطروحة في أربع مستويات تقع بين الأحادية والأزدواجية، فإما أحادية الفصحى، أو العامية، أو الجمع بينهما، أو اختيار لغة ثالثة، أو وسطى[1]، وكل مستوى له أنصاره ولهم مبرراتهم.

وما دامت غايتنا هي تتبع المواطن التي اشتملت على عبارات أو جمل أو ألفاظ عامية في روايات عبد الملك مرتاض، ودراستها، وتبين أثرها على المتلقي ارتأينا أن لا نطرق هذه القضية لتشعبها، ولعدم اتساع المقام للتفصيل فيها.

العلامة البارزة في أعمال عبد الملك مرتاض هو اعتماده على اللغة الفصحى سواء في السرد أو الحوار أو الوصف فهو «ليس من الذين يقف الناقد كثيراً عند لغتهم وأسلوبهم، وإنما عند أفكارهم وطرقهم الفنية»[2].

(1)– ينظر: عبد الرزاق حسين، فن النشر المتجدد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 207.

(2)– محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1981، ص100.

ولقد أظهر قدرة فائقة في توظيف اللغة، فلم يكن من الكتاب الذين يملون إلى استعمال العامية إلا بعد صياغتها بأسلوب فصيح، ولعل السر في هذا يعود إلى أصالته فهو مرتبط بالقرآن ألفاظ وتركيبا، وبالحديث الشريف وبلاغته، وبالشعر العربي، وبالنشر على اختلاف أنواعه، زيادة على الثقافة الإسلامية وقد جرى كل هذه مع قلمه وهو يسرد في رواياته دون تكلف.

لكن هذا الالتزام لم يمنع عبد الملك مرتاض من توظيف اللهجة العامية في رواياته وهو ما نراه ليس أمرا عفوياً اعتباطيا، بل هو أمر مقصود حتما من طرف الكاتب خصوصاً، وأن الرواية هي صدى لمجموعة من الأصوات يسعى إلى محاكاتها كما في حياتها من منطلق الواقعية، ولذا فإن المتأمل في هذا الاستعمال يجده ينهض بعدة وظائف:

– علامة على سياسة التجهيل التي مارسها الاستعمار الفرنسي في الجزائر إذ ما تخلل لغة الروايات من عبارات وجمل ومفردات عامية، سواء على ألسنة الشخصيات المثقفة أو الشخصيات الأخرى، هو أمر يدعو إلى التساؤل عن سبب هذا الاطراد في التواصل رغم أنهم أبناء بيئة واحدة، ولهذا فإن هذه الظاهرة لها جذورها التاريخية. فما جعل الجزائريين في هذا الفضاء هو السياسة الاستعمارية التي عملت على قطع الشعب عن جميع مقوماته وخاصة اللغة الأمر الذي أفرز – بطول العهد – عدم قدرة الجزائري عن كتابة لغته ولا التكلم بها، وهذا الوضع أفرز ثلاث مستويات ثقافية:

1– ثقافة عربية أصيلة وتمثلها فئة محدودة في المجتمع قام المستعمر بقطعها وفصلها عن باقي أفراد الشعب.

2– ثقافة فرنسية وتمثلها كذلك فئة محدودة لعزوف الجزائريين عن تعلم اللغة الفرنسية.

3- ثقافة شفوية تقص العربية الفصحى والفرنسية وتطرح لغة خاصة أقل ما يقال عليها أنها تشي الأمية.

وبهذا حول التاريخ إلى الرواية بطريقة فنية توافق بين الواقعية والفن في اللغة وهو أمر يخدم الهوية الوطنية ويسهم في تخليدها.

- توظيف العامية أو الدارجة في الرواية يعد علامة أسلوبية، إذ يشكل انزياحاً صوتياً وتركيبا على مستوى النص، وهذا يمس غالبا «مخارج أصوات الحروف واللكنة المتحدث بها»[1]، كما يمس «البنية التي تختلف اختلافاً واضحا عن اللغة الفصحى التي كتب بها النص»[2]، وهذا قد يدفع القارئ أو المتلقي إلى قراءة النص بشغف ويتابع أحداثه هذا من جهة ومن جهة يعمق في رؤيته وينمي وعيه إذ ليس هذه التقنية في الرواية عملية اعتباطية وهنا يكون قد وصل إلى ما يريده النقاد في قارئ الرواية الجديدة وهو أن يكون إنسانا يسهم في صنع الحياة[3].

- يمثل توظيف العامية أو الدارجة في الرواية «مظهراً من مظاهر العدول ذا التأثير الفاعل في حفز تجاوب المتلقي، فكتابة الرواية بالفحص يجعل من هذه اللغة أصلا ومن العبارات العامية فيها خروجاً عن هذا الأصل»[4]، وهذا من شأنه أن يكسب لغة الرواية مصداقية «لأن التعددية تجعل نص الرواية أقرب إلى نص المجتمع ثم

(1)- محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1981، ص100.

(2)- نعيمة بن علية، دراسة أسلوبية دلالية في ثلاثية أحلام مستغانمي رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2009، 2010، ص183.

(3)- ينظر: عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ط1، 1986، ص40.

(4)- طارق سعد شبلي، إشكالية العامية في النص الروائي، رواية خان الخليلي نموذجا الرواية قضايا وأفاق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع2، 2009، ص299.

بنيته الداخلية الحميمية ولا يصل النص إلى ذلك إلا بعد أن ينفتح على لغات المجتمع بكل طقاته وفئاته»[1].

– المساهمة في تثبيت نوع من أنواع الثقافة في المجتمع الجزائري لأن هناك من ينظر إلى عناصر التراث على أنها حقيقية تاريخية.

– تقنية من التقنيات التي يلجأ إليها الكاتب للتعبير عن أرائه وطرح أفكاره السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فهذا المقطع الذي جاء على لسان أحد شيوخ (الجلولية الجزائرية) : «أحنا جابنا ربي لكم رحمة ! أنتم رعايانا لو فياء ! أحنا عملنا لكم الطروق والمدارس كولا دكم، احنا حققنا لكم لمن ! أحنا اللي اعملنا لكم المزالش! حنا اللي نصبنا لكم عليها مسعولين أميين ! يعرفوا يسيؤوا فيكم! العمال! حنا اللي خلقنا لهم الشغل، في الجلولية من أمها حتى لبها ! واللي ما عندوش الشغل اليوم، نوجد له انشا الله غدوا! لما توجد المشاريع في العشرية... واش تحبوا أكثر من هذا ؟ واد الظلام ربي كثر فيه الخير والما! تشربوا ماءكم بلا خلوس! كان يمكن نفرط عليكم طرائب...جديدة... لكن ارحمناكم ! تحبوا أكثر من هذا الخير اللي جاكم!....»[2]، أدرجه الكاتب في لغة السرد بع أن أوقف السرد بالفصحى، وهذا «يعد مبنها أسلوبيا قويا قادراً على لفت انتباه المتلقي وهو ما يصلح مجالاً للبحث عن علة تفسير هذا الانقطاع كأن يكون ثمة ارتباط بشخصية بعينها، أو انتقال خاص لحركة الأحداث وهو ما يمكن أن يعد إشارة إلى قضية بعينها، يراد لها أن تستأثر بحظ أوفر من انتباه المتلقي»[3]، ولذا نجد هذا المقطع يحمل عدة قراءات

(1)– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، ص65.

(2)– عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، ص 16، 17.

(3)– طارق سعد شبلي، إشكالية العامية في النص الروائي، رواية خان الخليلي نموذجا، ص298.

تمس جوانب من الحياة التي سادت في الجلولية (الجزائر) بعد الاستقلال، قد يكون الكاتب قد تعمد عدم الجهر بها ليشرك المتلقي في قراءتها، نذكر منها:

1)- الجانب الساسي :

لا شك أن الصورة التي يقدمها المقطع لشيوخ الجلولية وخصوصا أنها جاءت في بداية الرواية، تشي بسيطرة الأمي على المثقف منذ بداية الاستقلال في تسيير شؤون الحكم ويربط ما حدث وما يحدث في هذا الوطن في جميع الجوانب بسيطرة هذه الفئة. وتجعل المتلقي يطرح جملة من الأسئلة السياسية :

- كيف وصل هؤلاء إلى الحكم ؟
- أين كان المثقفون ؟
- كيف رضي الشعب بهذا ؟

ولا ريب أن هذا يساهم في خلق وتشكل وعي سياسي عند المتلقي يساهم في بلورة إدراكه ووعيه،وهذا يجعل الكاتب طرفاً في الصراع الايديولوجي بشكل مباشر وصريح كما يريده باختين في علاقة الرواية بالايديولوجية.

2)- الجانب الثقافي :

الصورة التي قدم بها الكاتب شيوخ الجلولية (أميون) في هذا المقطع، توحي وتشي بقتامة هذا الفضاء وتريده، وتجعل مسار الأحداث تحت هذا الفضاء، فكل ما حدث في الجلولية (الجزائر) وما يحدث هو نتيجة غياب سياسة ثقافية مبنية على قواعد علمية دقيقة واضحة المعالم والأهداف. فالإرهاب الذي ضرب الجلولية هو نتيجة المؤسسات الثقافية وعلى رأسهم المدرسة من تكوين فرد مؤمن بحرية التفكير ومشبع بروح النقد، ومسلح بأفكار تمكنه من الثبات أمام الهزات التي قد يتعرض لها في حياته، فالذين خرجوا عن الطاعة في الجلولية وسكنوا الجبال هم من الجهال في أغلبهم «لولا أني لا أحسن إلا القتل والاغتيال لكنت ربما قلت فيه شعرا... أنا لم أتعلم في المدرسة مثلك ....حفظت

القرآن ... ولم أطلب العلم... ظروف الوالد كانت أقسى من أن ينفق علي... كنت أقيم في بادية قاحلة....شبيهة بهذه القاعدة التي نحن فيها»[1]. ولذا كانت هذه اللهجة مؤشراً للوعي الثقافي لهؤلاء الشيوخ الذين حكموا الجلولية والذي انعكس تأثيره المباشر على جميع النشاطات في الجلولية.

3)- الجانب الاجتماعي :

لا شك أن الجانب الاجتماعي سيكون ثمرة التوجهات السياسية والثقافية المنتهجة في الجلولية ومن الملامح التي وقفنا عليها من خلال قراءتنا لهذا المقطع:

1- الشغل في الجلولية مرتبط بوجود المشاريع «اللي ماعندوش الشغل اليوم توجد له انشالله غدوا كما توجد المشاريع في العشرية الجاية»[2]، ومن الطبيعي في ظل الظروف أن يكون التنافس من أجل الحصول عليه بين أفراد الشعب شديدا، مما يجعل الكثير منهم تحت رحمة أصحاب هذه المشاريع، كما يخلق هذه الوضع أفات اجتماعية خطيرة داخل المجتمع من بينها الرشوة والمحسوبية، وهذا لا محالة سيؤثر على السياسة الصحية، لأن القدرة الشرائية للمواطن لن تكون مستقرة.

2- هذا الاستئثار الذي خص به شيوخ الجلولية أنفسهم «أحنا اللي طردنا من الجلولية بني فرناس»[3]، هو أسلوب من أساليب الإقناع التي «لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في غرضها سبلاً استدالية تجر الغير جراً إلى الإقناع»[4] وهذا من أجل القبول بتميزهم في المجتمع، وهذا من أولى علامات التصدع في المجتمع الجزائري.

---

(1)- عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، ص216، 217.

(2)- عبد الملك مرتاض، وادي الظلام، ص 16، 17.

(3)- نفسه، ص17.

(4)- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، الدار البيضاء، المغرب ط1 1984، ص30.

– توظيف العامية في الرواية قد يكون شكلا من أشكال التلاعب باللغة وهو ما يعرف عند أرسطو بالاستخدام المراوغ للغة، وهو شكل من أشكال البلاغة[1] وهذا بغرض السخرية مثلما هو الحال في المقطع السابق (ص17) حيث نجده يحمل غرض السخرية من هذه الطبقة التي نصبت نفسها وليا على الجزائر.

– قد يكون لجوء الكاتب إلى توظيف العامية في بعض المواطن، إدراكا من أن الفصحى لا تناسب المقام، وقد تفقد المتلقي تمثل الواقع، ولذا كان إدارة الحوار في بعض المواطن من أجل إحداث تعالق بين الحدث واللغة وهذا «يمنح الواقعة والشخصية مزيداً من المصداقية وإمكانية التحقق الواقعي»[2]، فهذه الجمل :

– «أيش تريد أن تقول ياولدي ؟»[3].

– «أيش أقول يا أبي ؟»[4].

– «أيش تبغين يا أم حلومة ؟»[5].

– «أيش تعمل بها، يا مسيو بيبيكو ؟»[6].

– «أيش هذا النور الذي يشع علينا ؟»[7].

– «أيش قلت يا زينب ؟»[8].

– «ايش يريد هذا الشقي ؟»

---

(1)– نبيل ابراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، سلسلة الدراسات النقدية، د ط دار قباء للطباعة، مكتبة غريب، دب، دت، ص197.

(2)– صلاح صالح، سرد الآخر، المذكر الثقافي، العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1 2003، ص76.

(3)– عبد الملك مرتاض، صوت الكهف، ص22.

(4)– نفسه، ص41.

(5)– د الملك مرتاض، صوت الكهف 48.

(6)– نفسه، ص63.

(7)– نفسه، ص68.

(8)– نفسه، ص78.

قد ترددت عبر صفحات الرواية بغير تكلف، وهي تشترك في لفظة واحدة "أيش" التي تدل على السؤال أو الاستفهام، ولم يقتصر ورودها على لسان شخصية بعينها وإنما جاءت على لسان المثقف وغير المثقف مما يجعل منها علامة على طبيعة من طبائع الكلام المتجذر في المجتمع الجزائري، وهذا من شأنه «المساهمة إلى حد في اللغة الأدبية»[1]، للكاتب وإظفار بعد واقعي على الرواية، وإحداث تأثير جمالي على المتلقي.

– قد ينصرف توظيف العامية إلى استرضاء وجدان وعاطفة المتلقي، وذلك بإضفاء نوع من الدعابة والفكاهة على جو الرواية [2]، مثلما نجده مثلا ينطق بيبيكو بيبيكو ببعض الكلمات بلغة عربية دراجة، وكذلك ابنته جاكلين، وهذا الأسلوب في الكتابة الذي ينطفئ فيه «المنطق العقلاني في الخطاب»[3]، من شأنه أن ينفس على المتلقي ويدخل النشوة إلى قلبه مما يساعده على الاستمرار في التواصل مع النص، ومما جاء في الرواية وهو قليل نظراً للتغيير الذي أحدثه عبد الملك مرتاض في لغة الروايات في طبعتها الجديدة نذكر هذه المقاطع التي جاءت في سياق الحوار الذي دار بين بيبيكو ورابح الجن وجاكلين :

– شيء عجيب يا أبي ! انظر.....المشاغل!....الأضواء.

– هي مصيبة جاكلين....

– أهي ثورة يا أبي.....

– ربما ! أنا خائف منهم. انهم جائعون اذلاء.....أنا خائف!

(1)– باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد براءة، دار الفكر للدراسات والنشر القاهرة، ط1، 1987، ص64.

(2)– ينظر : سعيد سلام، التناص التراثي، ص311.

(3)– عبد الرحمان طه، في أصول الحوار وتجديد أصول علم الكلام، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1984، ص30.

– ابغوني رابح لوديمون !

– نعم، يامسيو بيبيكو.....السمع والطاعة !

– لتمض الأن إلى الربوة العالية....لتتجسس عليهم، المشاغل، الأصوات...الحركة ... بسرعة، أخبرني ربما يجري هناك! * [1].

– افتتاح الرواية بخطاب شعبي : – آمامية !

– الثورة الزراعية.....[2].

وإنهائها بنفس الخطاب : – آمامية !

– الثورة الزراعية.....[3].

وتكرار هذا الخطاب عبر صفحات الرواية، ص05، ص08، ص09، ص31 ص40 ص48، ص211، ص213، ص214، ص215، ص225 تجعل المتلقي يقف أما لقطة سينمائية لمجموعة من الناس يهتفون بهذا الشعار، مما يجعله يقول بأن هناك ثمة دلالات من هذا الحضور المميز لهذا الصوت في الرواية. ولذا نرجح أن يكون القصد توثيقا أو تأريخاً لمرحلة بداية الثورة الزراعية في الجزائر، خاصة وأن الرواية تبدأ هكذا : آمامية ! – الثورة الزراعية.....

---

*– المقطع في ط1، 1986، جاء على النحو التالي :

- شيء عجيب يا أبي ! انظر... المشاغل !
- هي مصيبة...
- هي ثورة يا أبي..
- ربما أنا خائف منهم، جائعون ومذللون... أنا خائف ! رابح لوديمون!
- نعم مسيو بيبيكو... السمع والطاعة !
- أنت يروح للربوة العالية...يتجسس عليهم...المشاغل... الأصوات، الحركة بصرعة!

(1)– عبد الملك مرتاض، صوت الكهف، ص122، 123

(2)– عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، ص05.

(3)– نفسه، ص225.

أصواتكم تعالى... المرح يغمركم، قوافلكم تتوالى...تمضى نحو الحقول....الحقول تتظركم ...بعرقكم تخضر....تنضر....وأصواتكم تغني....تغني..

-آمامية !

-الثورة الزراعية.

أما تكرار (آمامية ! الثورة الزراعية) يحمل إشارة إلى جانب الآخر الجانب المخالف، المعاكس للتعفن والاستغلال وبشاعة الواقع الفلاحي لما كانت المزارع تسير ذاتيا، أي أنه كان يريد أن يشير إلى الأمل، إلى المستقبل[1] وبهذا الاقتطاع أي اقتطاع هذا الشعار آمامية! الثورة الزراعية أضفى على التوظيف البعد التوثيقي أو التاريخي لأنه يرتبط بزمن معين وانتهى توظيف العامية في الرواية يمكن أن يكون مؤشراً يساعد الناقد أو المتلقي على تلمس المستوى الثقافي أو الاجتماعي، أو السياسي وحتى نوع البيئة التي تنتمي إلها الشخصية، ذلك لأن الكلمة تعد في نظر الكثير من النقاد «المؤشر الأكثر ملموسية لكل التحولات المجتمعية»[2]، لأنها مرسومة بخصائص الفئة أو العصر الذي تنقله[3]، وكذلك لا تتراءى وراء جميع اللغات الاجتماعية صور المتكلمين بملابسهم الملمومسة الاجتماعية والتاريخية»[4].

(1)- مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، ص53.

(2)- ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكرى، ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، ص29-30.

(3)- عمر عيلان، في منهاج تحليل الخطاب السردي، دار الكتاب الحديث القاهر، ط1 2011، ص204.

(4)- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة، محد براءة، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب ط2، 1987، ص92.